المشكلة الاستعمارية

ومظاهرها الاقتصادية والسياسية

للدكتور عبد الحميد خالد

جامعة الأسكندرية

النزعة الاستعمارية قديمة قدم التاريخ ، إلا أنها لم تتشكل فى صورتها الحديثة إلا منذ أواخر القرن التاسع عشر . وتُعرف النزعة الاستعمارية بأنها التغلب والسيطرة على شعوب مغايرة فى الجنس والدين واللغة والثقافة ، وتقطن مناطق مختلفة. وكانت الدوافع إلى الاستعمار هى غريزة التوسع ، والتعطش إلى السيطرة ، إلى جانب العوامل الاقتصادية التى من الجائز أن تكون قد لعبت دوراً . وتُعدّ حروب لوجال — زاجيزى ، ملك أوما وأوروك ، وسارجون الأول ملك أكّاد أول ما سجله التاريخ القديم من حروب استعمارية إذ ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد . ولكن هذين الملكين لم يُعيِّنا حكاما لحكم البلاد التى تغلبا عليها . وتعتبر مصر أول من أنشأ نظام الحكم المباشر ، وإن كان يبدو أنها كانت تفضل الحكم غير المباشر ، شأنها فى ذلك شأن روما بعد ذلك وبريطانيا أخيراً . ويدور تاريخ القبائل والجماعات فى وادى النيل خلال سنة ٣ آلاف و ٤ آلاف حول صراع متصل من أجل السيادة بين جنوب الوادى تقوده طيبة ، وشمال الوادى وعلى رأسه ممفيس . ثم قام تحتمس الثالث ومن جاءوا بعده من أمثال أمنحتب الثانى وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث — من حكام الأسرة الثامنة عشرة ، قاموا بحروب عديدة فى سوريا وفينيقيا وفلسطين وبلاد النوبة . وحكموا هذه البلاد ، وفرضوا عليها أداء جزية . بل رابطت قوات مصرية بقيادة قواد مصريين فى المراكز المهمة لضمان طاعة هذه البلاد . وأجبر تحتمس الثالث قبرص واتحاد المدن الكريتية على أن تصبح حلفاء أو أتباعا له .

على أن الاستعمار الشرقى كان يدور فى الأغلب حول التنافس بين الأسر ،

والمطامح الشخصية للملوك ، وكانت الجزية كذلك تذهب إلى الملوك . ولم يأخذ الاستعمار شكله الموضوعى كسياسة للدولة إلا مع نشأة الاستعمار الإغريقى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وخاصة عند ما أصبحت روما سيدة البحر الأبيض المتوسط والأراضى المحيطة به . وكان الغرض من الاستعمار مضاعفة قوة الدولة ومكانتها وثروتها . وقام الاستعمار الإغريقى على اعتبارات استراتيجية سليمة . وقصة الاستعمار الإغريقى والرومانى هى فى الحقيقة تاريخ شعبيهما . فكل حرب أجنبية كانت من أجل السيطرة الاستعمارية ، وقد لا نستثنى من هـذا حروب العبيد . كان البناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للرومان يقوم على الاستعمار . وما كان ليبقى بناءه الداخلى لولا المكاسب التى كان يحصل عليها من جراء هذا المنحى الخاص لسياسته . فلولا أن الجزية كانت تتدفق فى شكل نقود أو أدوات من المناطق المقهورة ، ما كانت تستطيع الطبقة الحاكمة أن تحتفظ بسلطانها .

وانتهى ذلك الاستعمار السياسى والاقتصادى بالقضاء على روما . وظلت أوروبا قرونا خمسة أو ستة فى حالة من التشتت والفوضى لا تسمح لها بإخضاع أى شعب أجنبى . وعكفت خلال هذه القرون على تنظيم نفسها ، وتمثُّل التيارات الحضارية المختلفة ، والشعوب الجديدة الزاحفة إليها من الشمال الشرقى ومن الجنوب ثم غزت المسيحية أوربا . والمسيحية دين تبشيرى . وعلى حين كان هذا الدين ينتشر فى الغرب ، بزغ دين آخر فى الشرق هو الاسلام . ظهر فى الجزء الأول من القرن السابع عشر . وفى أقل من مائة سنة بعد موت محمد سنة ٦٣٢ م . تمكن من السيطرة على امبراطورية تمتد من الهند حتى المحيط الأطلنطى ، تدفعـه إلى ذلك طائفة من العوامل السياسية والاقتصادية إلى جانب عامل آخر هو الدافع الدينى . واعتبار الدين دافعا إلى الاستعمار ، أمر جديد فى تاريخ السيطرة والاستغلال ، ولقد ألقى بظله على الحركة الاستعمارية جميعها فيما بعد .

وأعادت الكشوف الجغرافية العظيمة فى أواخر القرن الخامس عشر ، أعادت الحياة إلى الاستعمار السياسى والاقتصادى ، وصحبها اندلاع الحروب الاستعمارية على

نطاق واسع لم يكن معروفا من قبل . وظهرت البرتغال وأسبانيا كدولتين رئيسيتين داخل نطاق البـلاد المسيحية . وسيطر التجار والبحارة البرتغاليون على الشرق وأقاموا مستعمرات لهم فى العالم الجديد . وسيطرت أسبانيا على أمريكا الوسطى والجنوبية . وهكذا لم تبدأ أوروبا — بعد سقوط الدولة الرومانية — مرحلة جديدة من المغامرة الاستعمارية إلا منذ أواخر القرن الخامس عشر . واستمرت هذه المرحلة حتى يومنا هذا . ولقد ساعد على تدعيم ذلك ، توسيع نطاق الـكشوف الفنية ، وقيام الدول القومية المركزية . وتغيرت طبيعة الاستعمار كذلك ، ولـكنه تغير للأسف إلى الأسوأ . فلم يسمح المستعمرون الجـدد للشعوب المقهورة أن تحتفظ بحضارتها وديانتها وأجهزتها السياسية الخاصة . ولقد جمع الاستعماريون الأسبان والبرتغاليون بين جشعهم التقليدى والتزمت الدينى . وبهذا استعملوا طرازاً جديداً من الاستعمار سيشهد العالم الـكثير منه فى القرون اللاحقة .

وعند ما غزا فيليب الثانى البرتغال سنة ١٥٨٠ أصبحت أسبانيا عملاقا يسيطر بقامته الفارهة على عالم ممتد شاسع . ولـكن سرعان ما أخذت الأمبراطورية الأسبانية تتداعى . ذلك لأن قوتها فى الحقيقة لم تكن تقوم على الإنتاج وإنما على سرقة الجواهر الثمينة واستخدامها فى أغرض غير إنتاجية كذلك . وراح المجتمع الأسبانى يتآكل ويتحلل رغم المحاولات الجريئة الملحة التى حاولها أفراد أسبان لإبقاء الرابطة بين أسبانيا وأمريكا ومستعمراتها الأخرى . وعند ما خسرت أسبانيا أرمادها العظيم سنة ١٥٨٨ ، فقدت سيطرتها على البحار ، وانتهت مرحلة كاملة من الاستعمار الأوروبى .

وسقط الصولجان من يد الأسبان ، ولم تكن هناك دولة أوروبية واحدة فى مقدورها أن تمسك به . واستمر التنافس بين دول صغيرة من أجل الامبراطورية وكانت حروبا وحشية لا رحمة فيها شملت العالم بأسره تقريباً ، مات فيها ملايين من الرجال والنساء والأطفال فى آسيا وأفريقيا وأمريكا ، وفى ميادين القتال فى أوروبا نفسها . ودمرت بلاد بأسرها وتحطمت قرى ومدن ، وتوقف مراراً دولاب الحضارة .

وتمتع الهولنديون بطائفة من المميزات فى المرحلة الأولى من هذا الصراع . لأن النظام الرأسمالى تطور فى هولندا أكثر من تطوره فى أى مكان آخر . وانفردت البحرية التجارية الهولندية فى البحار ، والتهب الوعى القومى الهولندى أثناء الصراع ضد الطغيان الأسبانى . وخلال هذه المرحلة تمكن اتحادان تجاريان يتمتعان بالتأييد المالى من قسم كبير من السكان وبالتأييد السياسى من الدولة ، تمكنا من تثبيت زعامة هولندا فى الشرق والغرب بعد صراع متصل مرير ضد الأسبان والبرتغال . وأقامت شركة شرق الاندنز محطات تجارية فى رأس الرجاء الصالح وجزيرة سيلان وأرخبيل الملايو . وسرعان ما أصبحت لها السلطة العليا فى بحار الشرق الأقصى . وأدارت الشركة احتكارها بذات الطريقة الاستبدادية التى سار عليها الأسبان من قبل . وتمكنوا بهذا من استعباد منافسيهم جميعا . ومن بينهم البريطانيون الذين كانوا حلفاء لهم ضد البرتغاليين . وفى الوقت نفسه قامت شركة غرب الاندنز بصراع مماثل ضد البرتغاليين فى دول أمريكا .

ولم تعمر السيادة الهولندية طويلا ، وبدأت تنهار فى سنة ١٦٦٠ . وأخذ القراصنة البريطانيون والفرنسيون يطاردون الهولنديين كما كان يفعل هؤلاء مع الأسبان والبرتغاليين . ونجح التجار والمستعمرون البريطانيون والفرنسيون فى تثبيت أقدامهم شيئاً فشيئاً فى مناطق عديدة من العالم حاول الهولنديون من قبل احتكارها لأنفسهم . وسرعان ما نجحت فرنسا فى إقامة امبراطورية أكثر تماسكا من امبراطوريات الدول الأخرى التى تنافسها . كانت مستعمراتها فى العالم الجديد منيعة الجانب كما أخذت مراكزها التجارية فى الهند تنمو وتتعاظم سواء من حيث الأهمية أو القوة .

واستمرت هذه المرحلة من تاريخ الاستعمار الأوربى الحديث من سنة ١٦٦٠ حتى توقيع معاهدة أوترخت سنة ١٧١٣ ، ثم بدأ صراع جديد بين بريطانيا وفرنسا ظل متصلا — باستثناء انقطاعات قصيرة — حتى سنة ١٨١٥ . وأدرك كرومويل أن ميزان القوة يميل بسرعة من هولندا إلى فرنسا . ولهذا سارع إلى

مهادنة أعداء بريطانيا القدامى ليواجه عدوته الجديدة . ونجح فى الاستيلاء على جامايكا من أسبانيا سنة ١٦٥٥ ، ودخل حربين ضد هولندا ، ولم ينس فرنسا . وفى هذه الفترة احتلت بريطانيا جبل طارق ، ونيوفوندلند ، وأكاديا ، والمناطق المهمة حول خليج هدسن ، والنصف الفرنسى من جزيرة سنت كتس . وراحت شركة الهند الشرقية تدعم مراكزها شيئاً فشيئاً فى الهند ، وتعد نفسها للمعركة الفاصلة .

لم ينجح صلح أوترخت فى وضع أساس لسلام دائم . بل كان بمثابة مهلة فى الصراع بين بريطانيا وفرنسا للسيطرة على العالم . ولكن مراكز المتصارعين لم تتغير تغيراً حاسماً حتى اندلاع حرب السنوات السبع سنة ١٧٥٦ . وأحرزت بريطانيا من سنة ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ انتصارات لامعة فى أمريكا والشرق . وتداعت الامبراطورية الفرنسية كبيت من أوراق اللعب . وأصبحت كندا والهند وطائفة من الجزائر الصغيرة تحت سيطرة بريطانيا . وخرجت بريطانيا من الحرب بدون منافس جدى .

ولكن الفرنسيين لم يتركوا الميدان . كانت هزيمتهم لعدم توافر أسطول ملائم . فصمموا على استعادة سيطرتهم على القارة ، والانتظار حتى تحين فرصتهم . وفى سنة ١٧٧٦ انفجرت الثورة فى مستعمرات شمال أمريكا . وهرعت فرنسا إلى الوقوف فى صف الثوار . ثم سرعان ما أصبحت فرنسا بفضل الثورة وحروب نابليون أقوى دولة فى القارة . ولكن سياسة بريطانيا التقليدية الخاصة بتوازن القوى لم تتفق وسيادة فرنسا على أوروبا . وأخذ الصراع القديم شكلا جديداً . واستمر ربع قرن حتى انتهى بهزيمة نابليون ونفيه إلى جزيرة سانت هيلينا . وراح الفرنسيون يبحثون لهم عن مجالات جديدة لتأسيس امبراطورية جديدة ، فاحتلوا الجزائر سنة ١٨٣٠ وأخذ نفوذهم يشتد فى البلاد الأسيوية التابعة للخليفة العثمانى ، وفى الشرق الأقصى . على أن فرنسا لم تعد خطراً يهدد بريطانيا لضعف أسطولها البحرى .

ولكن سيطرة بريطانيا على العالم لم تعن بداية عهد من السلام البريطانى . بل ازدادت الحروب الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر ، لو قارناها بالقرن

الثامن عشر . وتعاظمت ضراوتها وقدرتها على التدمير بتعاظم الحضارة . حروب فى الشرق الأقصى ، وحروب ضد الروس ، وحروب ضد العرب ، وضد الفرس ، حروب ضد شعوب كثيرة من العالم . وشهدت السنوات الأخيرة من القرن صراعاً مريراً جديداً من أجل أفريقيا ، كما شهدت منافساً جديداً هو ألمانيا . وانتهى هذا الصراع أخيراً ، وخاصة بين بريطانيا وفرنسا والامبراطورية الألمانية الناشئة ، انتهى إلى الحرب العالمية الأولى .

الاستعمار يزعم أن عليه واجبات

لم يتكون للاستعمار ضمير إلا فى السنوات الأخيرة من تاريخه الطويل . فالكتاب الإغريق والرومان على السواء لم يجدوا أى ضرورة لتبرير سيطرتهم على الشعوب الأخرى . على أن طائفة قليلة من الكتاب الأسبان راحوا يبررون حكمهم الغاشم بأنه لتحويل الوثنيين إلى العقيدة الوحيدة الصحيحة . وفى القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الاستعمار الحديث ، قام الاستعمار بمحاولات محدودة لإخفاء حقيقته الضارية الوحشية . ولكنه من الناحية النظرية والعملية مرادف تماماً للسلب والاستغلال والاسترقاق والحكم بالسوط والمدفع . ولم يحاول الحكام الاستعماريون تبرير وجودهم بأن يزعموا أنهم إنما يدخلون الحضارة الغربية بين الشعوب المتأخرة السوداء والصفراء . ولم يزعموا أنهم يعلمونهم كيف يمارسون الحكم الذاتى ، ولا كيف يحافظون على نفوسهم الخالدة . والحق أنهم كانوا يشكون فيما إذا كان للأهالى الوطنيين نفوس على الإطلاق ، خالدة كانت أو غير خالدة .

وظل الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر ، عندما ظهرت بريطانيا كدولة استعمارية كبرى . وأخذ الاستعمار يشعر أنه فى حاجة إلى تبرير لوجود غير المصلحة الذاتية . فما كولى يبرر الاستعمار البريطانى بأن بريطانيا تحمل إلى المستعمرات العدالة والرحمة والحرية وقانون السماء وسعادة البشر .

ولكى تكون لدينا صورة صادقة عن التغير الذى طرأ على موقف الاستعمار ، ينبغى علينا أن نتذكر أن القرن التاسع عشر شهد أكبر الكشوف والتطورات

فى وسائل المواصلات فى تاريخ الإنسانية . وفى سنة ١٨٠٠ كان أكثر من خمسى الكرة الأرضية معزولا عن تدخل الإنسان ، كما كان شأنه منذ ألف سنة من قبل . وفى سنة ١٩٠٠ أصبح من العسير أن تجد ميلا مربعاً لم يعبر ، ولم تتحطم عقباته . وتاريخ العالم لم يبدأ إلا فى هذا القرن الأخير ، أما ما قبل ذلك ، فكان لأوروبا والصين والأمم الإسلامية وأفريقيا وغيرها من بلاد العالم وجودها المستقل ، وتاريخها المحلى .

ونشأت مشاكل جديدة معقدة . فدول العالم ليست جميعاً على قدم المساواة . بل هى على مستويات متراوحة مختلفة من حيث التطور . وكانت المشكلة الكبرى هى ما السبيل إلى تطوير الشعوب المتخلفة فى أقصر فترة زمنية ممكنة ؟ واعتبرت الحضارة الغربية المعيار العالمى للحضارة . وكان على الغرب أن يفرض معاييره الحضارية على الشعوب الأخرى . وسمح له بذلك ما أصابه من نجاح مادى ليس له نظير . لقد كانت مشكلة القرن الماضى باختصار هى كيف تسود الحضارة الغربية الكرة الأرضية جميعاً ؟ وكان السبيل إلى تحقيق ذلك أساساً الاستعمار الحديث .

على أن الشعوب غير الأوروبية كانت لها حضارتها ، بل كانت فى بعض الحالات غير محتاجة إلى المفاهيم الأوربية الغربية عن السعادة الإنسانية ، وخاصة لأنها كثيراً ما أقبلت تصاحبها المدافع . كان للصينيين وللعرب وللهند حضارات أكثر تعقيداً بل وأكثر رفاهة فى كثير من النواحى من الحضارة الأوروبية . ولكن هذا لم يكن ليعنى شيئاً لدى الدول الغربية ؛ فكل هذه الحضارات غير الأوروبية فى نظرها ليست إلا أشكالا للتأخر والانحطاط . ولا احترام ولا أمان فى العالم الحديث إلا لتلك الشعوب التى تمثلت النمط الغربى للحضارة . ولكن عملية التحضر فى الحقيقة كانت مدفوعة بدوافع من المنفعة الخاصة الذاتية . فلقد أنشأ التصنيع مشاكل جديدة فى البلاد الأوروبية نفسها ، حاولت الدول الاستعمارية حلها فى آسيا وأفريقيا . وأصبح الغرب يعتمد على طائفة كبيرة من المواد الأولية التى لا توجد إلا فى المستعمرات . ولقد أدى التنافس على النحاس والجوت والذهب والمطاط والسكر والصفيح وغير ذلك من المواد الأولية الضرورية للصناعة الحديثة ، أدى بالدول الأوروبية إلى البحث

عن مصادر هذه المواد فى المستعمرات . ومعنى هذا أن تصبح البلاد الافريقية والأسيوية فى ظروف سياسية واقتصادية ملائمة للتطور الصناعى .

ولقد أدى نمو الاحتكارات من اتفاقات المنتجين إلى الاندماجات إلى مشكلات خاصة بالتسويق فى كل دولة ، دفعت بالهيئات الصناعية إلى البحث عن أسواق لمنتجاتها الفائضة . وخرج رأس المال كذلك يبحث له عن مناطق خاصة يستثمر فيها فى جو من الطمأنينة ، على أن يكون له عائده المجزى .

ولقد منحت تلك الاحتياجات للاستعمار مبرراً لوجوده . ففى أواخر النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يعد يزعم الاستعمار أنه يقتصر على خدمة مصالح الدول الاستعمارية فحسب ، بل خدمة الغرب جميعاً . وأصبحت هذه حجته الكبرى التى يدافع بها عن نفسه . فالكتاب البريطانيون يذهبون إلى أن حكمهم قد فتح مناطق جديدة لتجارة جميع الدول ، وأنشأ مجالات جديدة لاستثمار رؤوس الأموال بدون تمييز ، سواء من حيث القومية ، أو الدين ، وأن منتجات أفريقيا الاستوائية وآسيا الاستوائية أصبحت ميسورة للتجارة والصناعة الأوربية بالنسبة للجميع على قدم المساواة ، وأن الامبراطورية أوجدت ظروفاً ملائمة للاقامة والاستقرار والاستعمار لكافة الدول المكتظة بالسكان فى العالم القديم . فجلادستون يبرر احتلال بريطانيا لمصر أساساً بأنه تحمل بريطانيا للمسئولية لا لمسئوليتها إزاء الشعب المصرى ، بل إزاء رعايا الدول الأخرى ، ولكى يسود القانون والنظام .

وإلى جانب هذه العوامل المادية للاستعمار ارتبط الاستعمار منذ القرن التاسع عشر بعامل آخر هو الدين ، هذا العامل الذى نشأ فى القرون الوسطى كأساس للتوسع الاستعمارى وظل كذلك حتى القرن التاسع عشر . وتضاعف عدد المبشرين وغمرت أفريقيا والجانب الأكبر من آسيا ، قبل نهاية القرن بالمعاهد التبشيرية . وأضاف القرن التاسع عشر إلى الدافع الدينى دوافع حضارية أخرى ، زادت أهميتها كلما تقدم القرن . فلم تعد المشكلة تحويل الوثنيين إلى مسيحيين بل تحويلهم إلى النمط الغربى للحضارة ، ولم يتداخل الاستعمار السياسى والاقتصادى من قبل هذا التداخل مع النزعة إلى التحويل الحضارى . بل لقد أظهر كل من الاغريق والرومان اهتماماً

ضئيلا بفرض حضارتهم على الشعوب الأخرى . فقد تتعلم المستعمرات المقهورة اللغة اللاتينية أو اليونانية ، وقد تعبد آلهة الرومان أو الاغريق ، لو شاءت ذلك ، ولكن ما من حاكم رومانى اعتبر الدعاية للحضارة الرومانية واجباً من واجباته . وكذلك شأن الأسبان . فعلى الرغم من اهتمامهم بكسب معتنقين جدد للمسيحية ، إلا أنهم لم يبذلوا غير جهود ضئيلة للغاية فى إعادة تشكيل القيم الاجتماعية والاقتصادية للبلاد المقهورة . أما فى القرن التاسع عشر ، فارتبطت الدوافع الدينية بالحاجات الاقتصادية لإيجاد طراز جديد من الاستعمار الحضارى ، يحرص على إحداث انقلاب فى المؤسسات السياسية والاقتصادية للبلاد المستعمرة ، وتقديم التعليم الغربى ، والمثل الغربية كالعدالة والمساواة والاحتمال ، هذا إلى جانب أساليب السلوك العادية واللبس واستخدام الوسائل الآلية .

وعندما طلب مجلس العموم من جوزيف تشمبرلين خروج القوات البريطانية من مصر ، أجاب بأن ذلك مستحيل لأن المهمة الحضارية التى تقوم بها بريطانيا فى مصر ، لم تستكمل بعد . وكذلك كان موقف السير چون سليلى . كان سليلى يؤمن إيماناً عميقاً بالمثل الأعلى للوصاية الامبراطورية . فليس هناك مصالح ذاتية لتبرير حكم الشعوب الأجنبية ، بل إنها المصالح المتبادلة بين الشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة وكان سليلى يعد جهود بريطانيا الهندسية كرسالة حضارية ما كان لبريطانيا أن تتخلى عنها . بل عليها أن تواصل حمل مسئولية الرجل الأبيض رغبت ذلك أو لم ترغب . ويعبر هذا عن آراء كثير من الكتاب ورجال السياسة .

وانتقل المثل الأعلى للوصاية إلى الولايات المتحدة ، وفى ١٤ فبراير سنة ١٨٩٩ اتخذ مجلس الشيوخ قراراً بأن الولايات المتحدة تنتوى أن تثبت فى جزر الفليبين حكومة تتفق مع حاجات سكان هذه الجزر ومصالحهم وظروفهم الخاصة ، وأن تهيئهم للحكم الذاتى . واعتبرت الولايات المتحدة نفسها وصية وحارسة على القيم المادية والروحية لشعوب تلك البلاد . وصدر عدد لا حصر له من البيانات من وزراء وحكام مسئولين فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا ، ومن طائفة كبيرة كذلك من الكتاب ، تكشف جميعاً عن أن فكرة الوصاية أصبحت فكرة عامة شائعة ، وانها

تقرر أن حكم شعب أجنبي يفرض إلزاماً أدبياً ينبغى أن يوفى لمصلحة المواطنين المحكومين ولمصلحة العالم أجمع .

الوفاء بالواجبات نحو شعوب المستعمرات

ولكن الاستعمار لم يحقق من وعوده إلا النذر الضئيل . فالأفكار المثالية التى دوت بها منابر البرلمانات ظلت كما هى أفكاراً مثالية لم تتحول إلى وقائع . أما فى الواقع الفعلى فأقام الاستعماريون الغربيون نظاماً وحشياً استعبادياً أنانياً أبعد ما يكون عن الحضارة والحرية . لقد أقام الحكام البيض فى جميع أفريقيا نظام الرق بدلا من أن يقيموا العدالة والسلام . وكان الوطنيون يساقون قسراً إلى العمل غير المأجور إلا بما يقيم أودهم . حقاً ، لم تكن أفريقيا فردوساً قبل مجىء الرجل الأبيض كان هناك الرق المحلى ، والغارات المتوالية لخطف الرقيق ، وكانت تنتشر الأمراض ويسود الركود . وكانت عدالة الأهالى الوطنيين عدالة جائرة وكانت الحياة الإنسانية زهيدة القيمة . ولكن على الرغم من هذا ، استطاع الوطنيون أن يقيموا لهم نظاماً اجتماعياً ، قد يبدو أمام أعيننا بدائياً وحشياً ، ولكنه كان موضع رضاهم . كما أنهم طوروا مجموعة من القيم التى وطدت دعائم مجتمعهم وجعلته متماسكا . وقضى مجىء الوطنيين قضاء مبرماً على نظامهم الاجتماعى . ضاعت سلطة الرؤساء والمسنين . ولم تعد قوانين القبيلة تنظم حياة المجموعة . وجلب الأوربيون أمراضاً جديدة معهم قضت على أعداد لا حصر لها من السكان الوطنيين . وتحطمت الأسر ، وانتشرت الدعارة ، والأمراض التناسلية ، وشرب الخمر والتحلل والتفسخ . وسيق الملايين من الوطنيين بعيداً عن أراضيهم وزراعاتهم . ففى جنوب غرب أفريقيا الألمانية مثلا ، قامت قبيلة الهيريرو بثورة ضد المحاولات المتعددة لسرقة أراضيهم وماشيتهم ، فأبيدت طائفة كبيرة منهم كانت ملاك ماشية ، وأصحاب أراض ، فكان على الألمان أن يجعلوا منهم أجراء معدمين وتحقق الأمر نفسه فى ليبيا وتونس والجزائر . ولا يعرف أحدكم عدد الليبيين الذين ماتوا فى ثوراتهم ضد الحكم الايطالى . ولكن انتهى الأمر بأن تمكن بضعة آلاف من الايطاليين من الاستقرار فى ليبيا . وفى كينيا حاول ٢,١٠٠

من البيض أن يمتلكوا ٢,٢٠٠,٠٠٠ فداناً أى بمعدل ٢٥ ألف فدان لكل مستقر . وهكذا كان الشأن فى نياسالاند ، وفى شمال روديسيا وفى فيجى وفى كل مستعمرة أخرى .

ولم يبذل الحكام البيض أى جهد جدى لتمدين الزراعة الوطنية . كان فى أفريقيا أراض تكفي لجميع المواطنين ولعشرات الملايين من المقيمين البيض . وكان من الممكن رفع مستوى حياة المواطنين والسماح بمقيمين جدد . ولكن لم يكن ثمة سياسة زراعية تقدمية . كان الوطنيون يحتاجون إلى أن يتعلموا أساليب الزراعة المنتظمة ، كما كان من الضرورى تطوير وسائل الرى والتحكم فى التربة وادخال الغلات الاقتصادية . كما كان هناك احتياج ملح إلى تقديم قروض مالية ليس لها فوائد عالية ، وإلى توجيهات فى الأمور الاقتصادية . لم يقم الاستعمار بهذه الواجبات للأسف إلا أخيراً ، حيث حاول اصلاح الزراعة الوطنية كما حدث فى غرب أفريقيا البريطانية . ولكن حدث هذا فى نطاق محدود للغاية .

ولم ينقل المستعمرون الحضارة كما كان يؤمل الغرب . فكان الحكام الفرنسيون — مثلا — يهدفون من وراء التعليم مجرد تدريب فئة ضئيلة من الأهالى الوطنيين للقيام بالأعمال البسيطة فى الجهاز الإدارى . وبدلا من توجيه الأهالى إلى أن يتطوروا تطوراً يتفق مع قابليتهم الحضارية ، أنشأ الفرنسيون نظاماً يدعى « بالتمثل الحضارى » يجعل من الوطنى إفريقياً سيئاً وفرنسياً أسوأ . وعلى الرغم من أن بريطانيا استولت على ساحل الذهب سنة ١٨٢١ فإن إحصاء سنة ١٩٣١ يكشف عن أن ٣١,٣١٨ فقط من السكان البالغ عددهم ٣,٢ مليون نسمة ، قد أكملوا تعليمهم الأولى .

أما ما قام به البيض حملة الحضارة لتحسين الأحوال الصحية بين الأهالى الوطنيين فهو النذر اليسير كذلك . لقد أدى الاتصال الأول بالحضارة الأوروبية إلى إدخال أمراض جديدة ، كما أن الجهود المضنية التى كان تستلزم من الأهالى الوطنيين ، ضاعفت من حدة الأمراض القديمة . ولقد دلت تقارير لجنة الكنجو

البلچيكية ، على أن مجيء البيض ، ضاعف من حدة انتشار الأمراض الأصيلة فى هذه المناطق كمرض النوم ، وعمل على تفشى أمراض جديدة كالسل ، والحمى الصفراء والتيفود . هكذا كان الشأن فى سائر المستعمرات ، لو أضفنا إلى قائمة الأمراض سالفة الذكر أمراض أخرى مثل الملاريا والسيلان وضعف القلب والالتهاب الرئوى . وكانت نسبة وفيات الأطفال مرتفعة للغاية . فما لا يقل عن ثلث الأطفال ، كانوا يموتون قبل عيد ميلادهم الأول . وتناقص تعداد السكان الوطنيين بنسبة خطيرة مفزّعة . وما أضأل الجهود التى بذلت لتحسين الأحوال الصحية للوطنيين .

ولم تسمح التعريفة الجمركية ، والتعليم والسياسة المالية للدول الاستعمارية بتطوير الصناعة فى المستعمرات . كانت نسبة عالية من المكوس الجمركية مفروضة على المواد الضرورية للصناعة وعلى الآلات . على حين أن البضائع القطنية والمنتجات البسيطة التى يمكن إنتاجها محلياً كانت الضرائب تتخفف عنها بقدر ما تسمح بذلك اعتبارات الدخل . كانت السياسة الاستعمارية تقوم على الاقتصار على إنتاج المواد الأولية والمواد الغذائية ، التى تحتاج إليها الدول الصناعية بأسعار زهيدة . وكان لعدم وجود عمال مدربين أثره السيء المعرقل للتطور الصناعى . ولقد حرص الاستعمار على أن لا يتيح لشباب المستعمرات أى تدريب فنى .

ولعل مظهراً من مظاهر السياسة الاستعمارية للدول العظمى لم يثر حوله كثير من النقد كما ثار حول مسألة العمل بالمستعمرات . لقد ألغى الرق الصريح فى النصف الأول من القرن الماضى ، ولكن الاستعماريين البيض أدخلوا وسائل جديدة لتوفير أيدى عاملة رخيصة ، بطريقة منتظمة . وكانوا يحققون هذا بوسائل تتضمن نظام التبعية . ، وأحياناً أشكالا من الرق خفية . فالسخرة للأعمال العامة ، وأحياناً للمشروعات المخصصة أساساً لخدمة المقيمين البيض ، كانت أمراً مقرراً فى جميع المستعمرات . وعلى الرغم من إلغاء السخرة فى المستعمرات البريطانية لأغراض خاصة ، إلا أن أشكالا أخرى أكثر خفاء نشأت لتعليم السود ما يسمى باسم « كرامة العمل » وكان الهرب من العمل يؤدى إلى فرض غرامات تصل أحياناً

إلى أجر سنة ، أو سجن سنتين أو كليهما أحياناً آخر . وكان فرض ضريبة الرأس أو ضريبة الكوخ ، التى تصل غالباً إلى أجر شهرين ، إحدى الوسائل البريطانية المفضلة لتعليم السود « كرامة العمل » .

مسئوليات الاستعمار نحو الغرب

ما من أحد فى مقدوره أن يزعم أن الاستعمار قد أوفى بالتزاماته فى أمانة نحو الغرب . بل إن الدراسات العديدة للسياسة الاقتصادية والاجتماعية للدول الاستعمارية الكبرى لتكشف عن أن آلافاً ضئيلة من الأفراد المواطنين فى البلاد الاستعمارية هى وحدها التى تستفيد من النظام . وقد تتسرب بعض المكاسب عن طريق الضرائب أساساً إلى فئات أوسع من السكان . على أن العالم فى مجموعه يستفيد استفادة ضئيلة من امبراطورياته الكبيرة فى آسيا وأفريقيا . إن النظام ليس صالحاً سواء لخدمة الغرب أو لأداء واجباته التقدمية والانسانية نحو شعوب المستعمرات .

وفى خلال القرن التاسع عشر . دعمت الدول الأوروبية العظمى سياسة التجارة الحرة فى ممتلكاتها المستعمرة . وبفضل جهود ريتشارد كوبدن ومدرسة مانشستر عامة ، وكشف آدام سمث لمغالطات المذهب التجارى ، ثبتت سياسة الباب المفتوح . وسارت ألمانيا على هذه السياسية . وقامت بتوقيع كثير من الاتفاقيات مع الدول الاستعمارية لتوكيد سياسة الباب المفتوح ، والاستفادة منها استفادة مشتركة . وحرصت فرنسا على سياسة تجارية احتكارية فى امبراطوريتها الاستعمارية . ولكن فى سنة ١٨٦٠ فاوض نابليون على الاتفاقية المشهورة مع كوبدن . وكان من نتائجها تحرير السياسة التجارية عامة . ومن سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٧١ كانت المعالم الرئيسية للتعريفة الفرنسية فى المستعمرات هى :

١ — يمكن للبضائع الأجنبية أن تدخل المستعمرات .

٢ — يمكن لمنتجات المستعمرات أن تباع فى الأسواق الأجنبية .

٣ — يمكن لسفن جميع الجنسيات أن تشارك فى التجارة الفرنسية للمستعمرات .

ولكن سرعان ما ألغيت اتفاقية كوبدن سنة ١٨٧٢ واستبدلت بها سياسة جديدة لتبرير مضاعفة العقبات التجارية مع العالم الخارجى . وسارت كل من بريطانيا وهولندا على ذات السياسة الحرة فى تجارة المستعمرات . ولم تستمر هذه السياسة طويلا ، إذ سرعان ما عادت سياسة الحماية الجمركية . ولكن على أى حال ظلت حرية التجارة هى القاعدة فى الامبراطورية الاستعمارية طوال القرن التاسع عشر . وفرضت التعريفة من أجل الدخل لا من أجل الحماية .

أما بعد الحرب العالمية الأولى فحدث تغيير حاسم فى سياسة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بهذه المسألة . وكان التغير لصالح الأفضلية الاستعمارية . وكسبت سياسة الباب المفتوح انتصاراً واحد فى مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥ الذى دعى إليه لتحديد موقف الدول من دعاوى الملك ليوبولد فى الكونجو . وحضر المؤتمر ممثلون من جميع الدول الأوروبية ما عدا سويسرا كما شاركت فيه الولايات المتحدة . ووافق المؤتمرون بعد ثلاثة أشهر من المداولات والمساومات السياسية على اتفاقية الباب المفتوح . فالمادة تقرر « ستتمتع تجارة جميع الدول بالحرية الكاملة فى كافة المناطق التى تكون حوض الكونجو » وأضيف إلى الاتفاق شروط تفصيلية تتعلق بضمان المصالح التجارية . وتم الاتفاق على حرية الملاحة لسفن جميع البلاد فوق الكونجو وأنهار النيجر . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالطرق والسكك الحديدية والقنوات الفرعية .

وأثبتت التجربة للأسف فشل أمثال هذه الاتفاقيات فى حل مشاكل الاستعمار . وأثبتت التجربة كذلك ان التجارة لم تكن إلا إحدى المكاسب فى الحكم الاستعمارى ، ولكنها ليست أهم مكاسب هذا الحكم . أما المكاسب الأخرى العديدة ففى المقدور أن تجتنى عن الحكم الاستعمارى داخل حدود تجارة حرة حرية مطلقة . وسارت كل من انجلترا وهولندا وألمانيا بأمانة على سياسة الباب المفتوح . ولكن أثبتت التجارب أن الجانب الأكبر من رأس المال المستثمر فى المستعمرات ، صادر من الدول الأصلية المستعمرة . حقا ، كان للفرنسيين والألمان وأبناء الدول الأخرى حرية شراء ما يشاءون من المستعمرات . كانوا أحراراً فعلا ، ولكن قامت فى

وجوههم عقبات دقيقة . فجميع الشئون التجارية تقريبا فى المستعمرات تخص مواطنين للدولة التى تستعمر هذه المنطقة . ولوحظ أن سياسة الباب المفتوح لا تضمن مساواة مطلقة فى شراء البضائع الحكومية والمواد الخاصة بالأعمال العامة . وتكون هذه المشتروات نسبة كبيرة من وارد البلاد المتخلفة . وفضلا عن ذلك فإن سياسة الباب المفتوح لم تكن تضمن حرية مطلقة فيما يتعلق بالمواد الأولية الاستراتيجية بل على العكس من ذلك . إذ تبين أن المساومات على استغلال المواد الأولية الاستراتيجية تقع دائماً فى أيدى مواطنين من الدولة الحاكمة . كل هـذه العوامل بالإضافة إلى وضوح كثير من الأمور الحضارية والسيكلوجية العامة بعد الحرب العالمية الثانية ، جعلت من الضرورى أن يتغير أسلوب إدارة المستعمرات تغيراً حاسماً . وأصبح من اللازم على الاستعمار أن يبدأ فى أن يحقق للعالم المتحضر تلك الخدمات التى ادعى دائماً أنه يقوم على تحقيقها ، وأن تتوافر المساواة للجميع ، على أن تكون مساواة حقيقية لا مجرد زيف باطل . إن الجيل الذى أجهدته الحروب الاستعمارية يجاهد من أجل انضاج نظام ينتهى به التنافس الاستعمارى المشئوم ، وذلك بإزالة المنافع الاقتصادية وغيرها من المصالح الخاصة للاستعمار .

نشأة حركة إصلاح المستعمرات

لم تعرف أوروبا إلا النذر اليسير عن أحوال البلاد المستعمرة عندما كان الاستعمار فى أوج مجـده . لم تهتم أوروبا بأن تعرف ذلك ، بل امتلأت الصحافة فى بريطانيا وغيرها من البلاد الاستعمارية بالخطب الرنانة والتقارير البراقة عن الامبراطوريات الممتدة . ولم ترتفع إلا أصوات ضئيلة هنا وهناك بالاحتجاج ضد شرور النظام وسوءاته . ولـكن هذه الأصوات كانت تذهب سدى . كان الغرب مكتفياً راضياً ، واثقاً من سلامة موقفه ، لدرجة لا تسمح له بالشك فى النتائج الخيرة لأعماله . ولقد وصل المصلحون الاستعماريون أوج تأثيرهم خـلال الثلث الأول من القرن . ولما نجحت مجهوداتهم لتحريم تجارة الرقيق (١٨١٧ — ١٨٢٠) والقضاء على الرق

المشروع ، أحسوا أن كل شيء قد أصبح على ما يرام فى الامبراطوريات . ولم يتحرك ضمير أوربا مرة أخرى إلا بعد ذلك بنصف قرن .

على أن تيارات حضارية وسياسية جديدة أخذت تتدافع فى أواخر القرن الماضى . فتطور الديمقراطية فى انجلترا وألمانيا وفرنسا والدول الغربية الأخرى ، وانتشار التعليم الشعبى ، ونمو الحركات العمالية والاشتراكية ، كل هذا ساهم فى إثارة الضمير الأوروبى من جديد .

وأخذت التقارير تنهال من المبشرين والرحالة من آسيا وأفريقيا تكشف أمام الغرب أن وراء قناع الأهداف الطيبة ، نظام مخيف من الرق الحقيقى فى المستعمرات وذاعت أقاصيص عن القسوة التى انتهجها الرجل الأبيض لتثبيت ممتلكاته ، وعن سياسته التى تهدف إلى القضاء على الأهالى الوطنيين . وراح المبشرون والأحرار وطوائف العمال فى كل مكان يطالبون بإصلاح المستعمرات . وتألفت اللجان لدراسة الأحوال الاجتماعيه فى المستعمرات ، وارتفعت موجة من الإصلاح ، جعلت من الممكن قبول نظام الانتداب .

ونضجت حركة الإصلاح خلال فضيحة الكونجو ، التى تردد صداها فى جميع أنحاء العالم . ولا حاجة لنا هنا بأن نستعرض المغامرات والمؤامرات وأشكال التدخل الدبلوماسى التى انتهت جميعاً بأن يصبح الملك ليوبولد مالكا لأكبر بقعة امتلكها ملك غربى . ويكفى أن نذكر أن المؤتمر الدولى الذى انعقد فى برلين سنة ١٨٨٥ سلم بدعاوى الهيئة الافريقية الدولية التى يحتضنها ليوبولد والتى تأسست « بهدف رفع مستوى الحضارة والتجارة فى أفريقيا ولأهداف إنسانية خيرية أخرى » . سلم المؤتمر بدعاوى هذه الهيئة فى حكم الكونجو . وهكذا أخذ ليوبولد على عاتقه أن يحمى الأهالى الوطنيين سواء مادياً أو أدبياً وأن يساهم فى القضاء على الرق ، وتجارة الرقيق ، وأن يضاعف من تعليم الأهالى وتحضيرهم وأن يحمى المبشرين والعلماء والرحالة . وما أن انتهى المؤتمر حتى أصبحت الكونجو دولة خاصة بالملك ليوبولد ، ونسى العالم جميعاً الكونجو ، وإن لم يغب عن بالها ملكها الجديد . ولكى يضاعف

ليوبولد من أعمال التمدين والتحضير أصدر قانون فى ١٨٨٥ يعلن فيه أن جميع الأراضى الخالية ملك للدولة . أى فى الواقع ملك لليوبولد الثانى . لأن الدولة لم تكن إلا ليوبولد .

وشهدت السنوات التالية سلسلة من القوانين الجديدة التى تهدف جميعاً إلى تحويل ما بين ٢٠ إلى ٣٠ مليون من الأهالى الوطنيين إلى أرقاء خصوصيين لملك البلجيكيين . وألزم الوطنيون بأن يعملوا فى أشجار الصمغ فى الأراضى الخالية ، وكان عملهم هو قيمة ما عليهم من ضرائب . ولما كانت الأراضى الخالية ملكا للدولة فلم يكن لهم أى حق فى امتلاك أشجارها أو فى أن يسمح لهم بجمع صمغها وبيعه . وكان على عملاء الملك ليوبولد أن يعلموا « كرامة العمل » بأقل التكاليف الممكنة . وكلما هبطت تكاليف الأهالى الوطنيين ، ارتفعت عمولة العملاء .

ونجح نظام ليوبولد فى وقت قصير لونظرنا إليه بمنظار الدولار والسنت . فقيمة العاج المصدر قد ارتفعت من ٢,٨ مليون فرنك سنة ١٨٩١ إلى ٥,٣ مليون فرنك بعد عشر سنوات . وارتفعت قيمة المصدر من الصمغ من ٠,٣ مليون فرنك إلى ما لا يقل عن ٣٩,٩ مليون فرنك . وخرج ليوبولد من المنطقة المخصصة للتاج وحدها بربح صاف مقداره ٣,١٩٧,١٢٠ جنيه انجليزى فى عشر سنوات أما الشركات صاحبة الامتياز فلم تحصل على أقل من هذا . فشركة أبير صاحبة الامتياز ربحت فى ست سنوات ربحاً صافياً مقداره ٧٢٠,٠٠٠ جنيه انجليزى من رأس مال مدفوع مقداره ٩,٢٨٠ جنيه انجليزى كأن كل ٢٠ دولار تأتى بفوائد قدرها ١,٥٧٥ دولار . وربحت شركة كانت تعمل فى كاساى فى أربع سنوات ربحاً صافياً مقداره ٧٣٦,٦٨٠ جنيه انجليزى من رأسمال مدفوع قدره ١٤٠ جنيه انجليزى ولكن ماذا يهم أن يهبط عدد سكان الكونجو بحسب أوثق الأرقام من عدد يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ مليون نسمة إلى ٨ مليون نسمة على الاكثر سنة ١٩١١ ، وماذا يهم أن تدمر المدن وتطمس ، وتقضى على آلاف المواطنين ، ويشقى منهم الملايين ، طالما تمتلىء خزائن المغامرين الأوروبيين .

وقبل أن ينتهى القرن أصبحت « جريمة الكونجو » على كل لسان . وانهالت الاحتجاجات من جميع أركان الدنيا ، واهتمت الصحافة الاوروبية بنشر تفاصيل الجرائم البشعة التى كانت ترتكب . ونشأة رابطة للاصلاح فى بريطانيا وأخرى فى فرنسا . وأسس الامريكيون من ذوى النزعة الانسانية رابطة أمريكية للكونجو ، وتأسست كذلك جماعة فرنسية للدفاع عن أهالى الكونجو ، وتأسست جماعة أخرى سويسرية للغرض نفسه . واضطرت الحكومة البريطانية إلى نشر سلاسل مطولة لتقارير قناصلها ، وقص عشرات المبشرين والرحالة ما رأوا ، رأى العين .

ولكن حركة الإصلاح لم تقتصر على الكونجو . لقد استيقظ الضمير الأوروبى ، وراح الرحالة والمبشرون يكشفون عن أن الأحوال فى الممتلكات الأخرى لا تختلف عن الأحوال السائدة فى ممتلكات الملك ليوبولد . وأخذت الحكومات ترسل اللجان لدراسة الأحوال فى المستعمرات . وشاركت الصحافة الأوروبية مشاركة فعالة فى إثارة الرأى العام الأوروبى . وانتقلت حركة الإصلاح من مستعمرة إلى مستعمرة ، ومن مشكلة إلى أخرى .

وفى منتصف السنوات العشر الأولى من القرن ، انتقلت الأضواء إلى مستعمرات ألمانيا فى أفريقيا . قامت ثورة من قبيلة الهيرورو سنة ١٩٠٦ ، ولكنها أخمدت بعنف بالغ ، مما أدى إلى القضاء على ما يزيد على نصف أفراد القبيلة ، وانتقل اهتمام أوروبا إلى هذه البقعة من العالم المستعمر . وأقبل المبشرون والرحالة ، لتسجيل تفاصيل عن الأساليب الألمانية الوحشية فى معاملة الأهالى وفى نهبهم . وقامت قيامة الصحف الديمقراطية الاشتراكية ، وتألفت لجان البحث ، وخصص الرايشتاج جلسات طويلة لمناقشة الموقف .

وشهدت الأعوام نفسها امتداداً ملحوظاً فى النشاط الاجتماعى والإنسانى للمبشرين . وبدأت المنظمات التبشيرية فى الاهتمام بتبسيط نظم الدراسة ، وإقامة مراكز للعناية بالصحة . ولقد بذلت الهيئات التبشيرية (وخاصة البريطانية منها) جهوداً كبيرة لتعريف أوروبا بحقيقة الأحوال فى المستعمرات . وكان لوجودها أثر رادع على الحكام السياسيين — وإلى حد كبير على أفراد التجارة كذلك .

كان الرأى العام فى البلاد المتحضرة على أتم استعداد لقبول الإصلاحات الرئيسية . وانتشرت الدعوة إلى الإصلاح انتشاراً واسعاً سريعاً قبل سنة ١٩١٤ . ولقد وضعت منظمات العمال والأحزاب الاشتراكية فى برامجها بنوداً أساسية تتعلق بإنجاز إصلاحات بعيدة الأثر فى المستعمرات ، تتسم فى بعض الأحيان بأنها ضد الاستعمار نفسه . وفضلا عن ذلك ، فلقد قام الكتاب الأحرار واليساريون — ممن يرجعون الحروب إلى التنافس بين الدول الاستعمارية — قام هؤلاء الكتاب خلال سنوات الحرب الأربع بإثارة الرأى العام فى جميع دول الحلفاء ، ضد النتائج الشريرة للنزعة الاستعمارية .

أما المثل العليا التى نبتت خلال العشرين سنة السابقة على الحرب العالمية الثانية فيمكن تلخيصها فى مبادىء بسيطة قليلة هى :

أولا : يطالب الإصلاحيون بإصلاحات اجتماعية . يطالبون بتحسين التعليم العام ، وتحسين الصحة ، وظروف السكن وتمدين وسائل الزراعة للأهالى الوطنيين ، وتطوير الصناعة فى المناطق المستعمرة لرفع مستوى معيشة الوطنيين ، وزيادة الضرائب التصاعدية .

ثانياً : المطالبة بتحسين حالة العمل . ولقد راح الكتاب الأحرار والكتاب العماليون يهاجمون فى كل مكان الأجور المنخفضة ، وساعات العمل الطويلة وظروف العمل المخزية ، وانعدام وجود تشريع عمالى تقدمى ، مما يؤدى إلى وجود شكل حقيقى من أشكال الرق .

وأخيراً : كانت الإدارة المستبدة للحكام البيض موضع نقد مرير . وارتفعت الدعوة إلى إتاحة الفرصة للأهالى الوطنيين لحكم أنفسهم حكما ذاتياً . وطالب الإصلاحيون بأن يشارك الاهالى فى عملية الحكم ، وأن تعد الحكومات الاستعمارية بإعداد مستعمراتهم للحكم الذاتى .

وهكذا برز الحكم الذاتى كمثل أعلى أساسى فى التفكير الغربى .